17 ème Année No. 827

Lundi — 9 — 5 — 1949

الرسالة

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

ARRISSALAH

Revue Hebdomadaire Littéraire Scientifique et Artistique

صاحب المجلة ومديرها ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

الإدارة
دار الرسالة بشارع السلطان حسين رقم ٨١ — عابدين — القاهرة
تليفون رقم ٤٢٣٩٠

بدل الاشتراك عن سنة
١٠٠ ق مصر والسودان
١٥٠ ق سائر الممالك الأخرى
ثمن العدد ٢٠ مليما

الإعلانات
يتفق عليها مع الإدارة

العـــدد ٨٢٧ « القاهرة فى يوم الاثنين ١٠ رجب سنة ١٣٦٨ — ٩ مايو سنة ١٩٤٩ » السنة السابعة عشرة

٣ — أمم حائرة

نحن والمدنية الأوربية

لصاحب العزة الدكتور عبد الوهاب عزام بك
وزير مصر المفوض بجدة

أعنى بكلامى هنا الأمة المصرية أولا ، وبتناول الكلام الأمم المشابهة لها المتصلة بها من العرب والمسلمين بما تشابهت أحوالهم فيما ورثوا من حضارة قديمة ، وبما تقارب نظرهم إلى الحضارة الحديثة .

طلعت هذه الحضارة على الشرق مع قوم يعدّهم الشرقيون — ولا سيما العرب والمسلمون — أعداء ، سجّل التاريخ كثيراً من حروبهم ووقائعهم ، ولم يخلُ عصر من إغارتهم على المسلمين ، أو إغارة المسلمين عليهم ، منذ انتشر الإسلام فى غربى آسيا وشمالى أفريقية وفى جنوبى أوربا : أسبانيا وجزر البحر الأبيض ثم البلقان .

وظهرت هذه الحضارة والنزاع مستمر ، والمعارك دائرة ، ولم يثير أصحاب هذه الحضارة من خططهم ، ولا عدلوا من سيرهم ، بل استعانوا بما أمدتهم به الحضارة الحديثة من علم وصناعة فى التغلبة والسيطرة على من عجزوا عن قهرهم وتذليلهم من قبل .

فلم يكن بد أن يظفر الشرقيون ، وبخاصة الدول الإسلامية ، إذ كانت مجاورة لأوربا ، وكانت ساحة السلطان فى آسيا كلها ما عدا الصين ، وفى أفريقية — لم يكن بد أن يتغلب هؤلاء من الحضارة التى طلعت عليهم بين الحديد والنار على أيدى أعدائهم القدماء ، وطلعت مشوبة بكثير مما يخالف عقائدهم وآدابهم وسننهم .

ويعرفان ما أيقن المدافعون من أنفسهم من أهل الشرق أنهم مغلوبون لا محالة إن لم يدفعوا هؤلاء الأعداء الأشداء ، بمثل سلاحهم ، وبلقوهم بمثل عددهم ، ويكيدوهم بمثل خططهم وتدبيرهم . فلم يجدوا مناصاً من أن يأخذوا من أوربا حضارتها الصناعية على قدر الطاقة وعلى قدر ضرورات الدفاع .

لم تكن هذه الحضارة موضع تردد ، إذ دعت إليها ضرورة الدفاع عن الأنفس والأوطان ، ولم تكن موضع ريبة لأنها قائمة على قوانين طبيعية لا تختلف فى الشرق والغرب ، ولا تلائم أمة دون أمة ، ولا تتصل بتاريخ دون آخر ، وهى لا صلة لها بالدين والأخلاق والآداب والعادات والعرف والطباع ونحوها .

أخذ المسلمون الحضارة الصناعية على قدر ما مكّنهم علمهم وخبرتهم وأحوالهم ، وعلى قدر ما يسرت لهم أوربا الأخذ . أخذوا نتائج هذه الحضارة الصناعية ، وحاولوا أن يأخذوا ما تعتمد عليه من علوم وفنون .

ثم أخذوا كذلك ما لم يجدوا مناصاً من المسارعة إليه من نظم للجيوش ، ونظم للدولة ، ونظم للإدارة .

ثم زاد اتصال الغرب والشرق بالاقتباس والاقتداء ، ثم بغلبة الغربيين على كثير من الأقطار وإقامتهم فيها واختلاطهم بأهلها . وأخذت هذه الحضارة أمم الشرق بالرغبة والرهبة ، وبالسطوة

والزينة ، فسايروها راضين وكارهين ، وعارفين ومنكرين ، وافتتن كثير من الناس فرأوا كل ما أتى من أوربا حسناً ، وكل ما ورثه الشرق من تاريخه قبيحاً . وزادت هذه الحضارة إغراء بما ازينت به من مناظر ، وما اتصلت به من لذة ولعب ولهو ، فلم يقو على معارضتها والصبر على فتنتها إلا قليل .

واشتبهت الأمور ، وانبهمت السبل ، والتبست الأشياء ، فلم يفرق الناس بين طيب وخبيث ، ونافع وضار ، ومعروف ومنكر . هذه الفتن التي تدع الحليم حيران ، فكيف بالجهلاء والعامة في هذا السيل الجارف والطوفان الطام ؟

ولم يفرّق الناس في هذه الفتنة العمياء ، وهذه المحنة الصماء ، بين الحضارة الصناعية والحضارة الأخلاقية ، ولم يميزوا بين ما يلائم وما لا يلائم ، فقاوموا الأخلاق والآداب وسنن الجماعات وروابط الأسر ، وقاسوا العقائد والمذاهب ، على السيارات والطائرات والغواصات والمدرعات ، وعلى البرق والهاتف والمذياع ، وفتنوا بالمسرح والسينما والمرقص ، وبالزين والتبرج والتعري . واختلط الحابل بالنابل ، وضاع الحق في هذه الضوضاء ، وضلت المروءة في هذه السوق ، ونادى السفلاء فلم يسمع لهم ، وقال الحكماء فلم يبالَ بقولهم ، وغُلب الناس على أمرهم حتى اختلف القول والعمل ، فترى الإنسان ينكر الشيء ويفعله سراً مع الدهماء ، ويخالفه اعتقاداً ورأياً وقولا ويخضع له في داره بين أهله وأولاده . وبلغت الفتنة أن قال بعض الكبراء وأنا أحاوره في الطريقة المثلى : « إن الطريقة المثلى هي الواقع » .

وقد أنكرنا أنفسنا وحقرنا ما عندنا وأعظمنا ما عند غيرنا وأخذتنا الرهبة والروعة من كل جانب ، وكم زرينا على أشياء ورثناها وعرفناها ، حتى أخذها أهل أوربا وأعجبوا بها فنقلناها عنهم ، ورضينا بها إذ رجعت إلينا من بلادهم ، كما هجرنا الهندسة العربية في الأثاث وغيره ، ثم حكيناهم في الإعجاب بها فاتخذناها بعد أن سميناها « أوربكا » .

وكما أعرضنا عن سباق الخيل وضروب الفروسية والرياضة التي كانت لنا ، ثم مكثنا على قمار في سباق يربّى خيلا ولا يشمّ فرساناً — وأمثال هذين كثير .

والإنسان في هذا الضعف والخوف لا يصح له رأي ، ولا تستقيم له طريقة . وكيف يصح الرأي إن لم يعتد الإنسان بنفسه ، ويثق بعقله . ويعرف أن له كياناً واستقلالا ، وأن له الحق أن يأخذ ويرد ، ويستحسن ويستنكر ؟

إن الحياة التي لا تشعر بنفسها ، ولا تستمد قواها ، ولا تستمين بمواهبها ، لأشبه بالموت ، لما صور الحياة ، وليس فيها حقائقها ...

عظمت حيرتنا في التقليد على غير هدى ، وقلقنا من المحاكاة على غير بينة ، وضعفنا في هذا الاستسلام ، والذهاب مع التيار ، والتسلل بحكم الزمان وسنة العصر ، وما حكم الزمان وسنة العصر إلا تسمية العاجزين ، وعذر الفاشلين ، وإنما الإنسان الحق الذي يسير الزمان ، ويخلق سنة العصر ، ويرد الحادثات عن مجراها ، ويسيرها على الطريقة التي يرضاها .

فلما ألقينا أفكارنا وحقرنا مذاهبنا ، والطرق أمامنا مختلفة ، والمذاهب ملتبسة ، نزع كل منا منزعاً ، وذهب على ما تخيل مذهباً ، فكان اختلاف الآراء في الجماعة ، وتناكر المذاهب فيها ، وكانت هذه الحيرة ، وهذا القلق ، وهذا الاضطراب .

ليتنا حين أخذنا عن غيرنا أخذنا الجليل والحقير ، وحاكينا في الجد والهزل ، وكم في الغربيين من قدوة صالحة ، وأسوة نافعة ، وخطة حميدة . ولكن عظائم الأعمال لها وسائل من الكد والتأني واحتمال الشاق والصبر عليها . والمجد مصاعد شاقة ، وتكاليف مرهقة . وسفساف الأعمال هينة قريبة لذيذة يستطيعها كل من شاءها ، ويهبط إليها من لم يكلف نفسه الصعود . فقد أسرعنا في هزل الغربيين ولهوهم ومظاهرهم ، وشق علينا أن نضطلع بكثير مما اضطلعوا به وعملوا له ، في نظام محكم وخطة شاقة ، ودأب لا يكل .

لسنا جاهلين بمحاسن الحضارة الحديثة وفضائلها ومزاياها ، ولا غافلين عن قيمتها وحتمها ؛ ولكنا لا نجهل كذلك رذائلها وعيوبها ، ولا نغفل عما وراء قيمتها من مرامي الملائم ومقاصد الجماعات . ما أيسر أن يُعرِّق الإنسان نفسه من الإصلاح ، ويهز مع الغواة ، ويستمتع مع المستمتعين ، ولسنا عن هذا عاجزين ، ولكن الأمانة التي في أعناقنا للأمة ، والواجب الذي علينا لها ، والبصر بما وراء المظاهر ، وإدراك ما بعد الحاضر ، كل أولئك يسمّي المفكر ، ويقلقه ويسلط عليه هموماً لا تنام ولا تُقيم . فيُلزم نفسه الدعوة إلى الإصلاح ، والأخذ بالأشق ، وحرمان نفسه من كل ما يأباه الوجدان اليقظ ، والعقل الصحيح .

(للكلام صلة) عبد الوهاب عزام